العرب
الثلاثاء 2021/07/27
السنة 44 العدد 12130

العراقيون ينتظرون أكثر من إسلام السفير البريطاني الجديد

كرم نعمة
كاتب عراقي مقيم في لندن

من يقرأ كتاب "الاحتجاج" لأبي منصور الطبرسي، أحد أكبر علماء المذهب الشيعي في القرن السادس الهجري، يكتشف بيسر الهراء المصفوف على أنه حقائق تاريخية. ومن سوء حظ المجتمعات العربية أن ذلك الهراء انتقل من الأقبية الطائفية المظلمة التي كان يتداول فيها كتاب "الاحتجاج" إلى أن يتصدر الواجهة في سجال أعمى ومسموم على مواقع التواصل والقنوات التلفزيونية.

هذا الكتاب مصدر كبير للاستخفاف بالعقول، عندما يضفي هالة خرافية على اسم علي وهو ينقل احتجاج الإمام علي على سلب الخلافة منه!

بالأمس أعاد عراقيون ما يشبه ذلك الهراء التاريخي مع الفيديو الذي نشره السفير البريطاني الجديد في العراق مارك برايسون ريتشاردسون يعّرف فيه الجمهور العراقي على نفسه بطريقة تجلب الانتباه فعلا. أهم ما فيه حديثه بعربية سليمة ومدهشة وتقديم نفسه على أنه مسلم ولديه ولد اسمه "علي" يتحدث كثيرا معه عن كرة القدم.

العراقيون ينتظرون من السفير البريطاني الجديد مارك برايسون ريتشاردسون أكثر مما قدمه زميله السابق ستيفن هيكي من خبز تنور ودولمة عراقية وأكثر بكثير من دينه كمسلم واسم ابنه علي

تحولت مفردتا مسلم وعلي إلى موضع احتفاء يعبر بامتياز عن تشبث عراقيين بالوهم بوصفه إنجازا يحسب للعراق، وجائزة ترضية مقابل خساراتهم السياسية والاجتماعية الفادحة.

تكرر كثيرا مثل هذا الوهم من قبل في قصص غير حقيقية بالمطلق تم تداولها في وسائل إعلام بوصفها مفخرة عراقية تاريخية، من بينها تقرير ملفق تم تداوله بشكل كبير في وسائل إعلام بعضها يعد عالي المسؤولية! يعزو النهضة الاقتصادية الصينية إلى عالم اقتصاد عراقي مسيحي اسمه إلياس كوركيس، مقابل انهيار الاقتصاد العراقي وعجز الحكومات عن انتشاله منذ عام 2003.

الخرافة الأخرى كانت عن وهم وجود خمسة وزراء من أصول عراقية يتقلدون مناصب رفيعة في الحكومة البريطانية، مقابل مجموعة من الوزراء الجهلة في الحكومات العراقية المتعاقبة.

مهما يكن من أمر، فإن العراقيين الذي يعرفون بريطانيا جيدا سبق وأن قدموا للسفير السابق ستيفن هيكي ما يساعده على فهم العراق أكثر، ليس عن طريق تقديم نفسه كخباز في مطبخ عراقي، فمثل هذا التنور الذي كان يقف بجواره في فيديوهات عدها مفاجأة تاريخية، لا تخلو منه المئات من المطاعم في لندن!

كان السفير السابق نجم مواقع التواصل الاجتماعي العراقية من أنواع الطعام إلى ارتداء الملابس التقليدية وعرض نفسه كأحد أكثر المشجعين المتحمسين للمنتخب العراقي لكرة القدم، بينما بقيت السياسة والواقع العراقي الرث آخر اهتماماته.

في يوم ما أرسلت لهيكي مقال الكاتب البريطاني ماثيو باريس للتعلم منه كيفية النظر إلى دول الشرق الأوسط، وألا يكرر جهل الغرب السياسي والإعلامي بالعالم العربي.

فقد كتب باريس في صحيفة التايمز آنذاك "حان الوقت كي نعترف بأننا ضللنا الطريق في الشرق الأوسط. أسفل سياسات الخارجية والدفاع البريطانيتين تقبع أكبر كذبة استمر تداولها منذ حرب الخليج الأولى قبل 25 عاما، وهي أننا نعرف ماذا نفعل هناك".

وأضاف باريس الذي يعد من بين أهم الكتاب الذين يقرأون واقع العالم العربي بطريقة صحيحة "الحقيقة هي أنه ليس لدى البريطانيين ولا الأميركيين أدنى فكرة عما يحدث هناك، رغم محاولات إقناع أنفسنا أنه دائما هناك الشيء الصحيح الذي يتعين علينا القيام به (...) ماذا لو لم يوجد أصلا هذا الشيء الصحيح؟".

أكاد أجزم أن لا أحد من العراقيين الذين احتفوا بإسلام وعلي ابن السفير الجديد مارك برايسون ريتشاردسون يمتلك معلومات عن سبب دخوله الإسلام، وتوقيت ذلك، وعما إذا كان مرتبطا باختياره لزوجة مسلمة أم محض قناعة دينية مجردة (لا توجد أي صورة منشورة أو تعريف للسيدة زوجة ريتشاردسون).

أيضا لا نعرف دلالة اسم علي بالنسبة إلى السيد السفير البريطاني، ومع أنه لفظه بعربية صحيحة، لكن مثل هذا الاسم شائع ومعروف في المجتمع البريطاني وإن اختلف بحروف التهجي الإنجليزية عما يكتب بالعربية.

فـ"آلي" الإنجليزي اسم يطلق على الإناث والذكور على حد سواء. أحد أنجح المسلسلات التي عرضت قبل سنوات على شاشة هيئة الإذاعة البريطانية "بي.بي.سي" كانت بطلته اسمها آلي في المسلسل.

الجمهور العربي يعرف جيدا أن لاعبي المنتخب الإنجليزي وناديي توتنهام وأستون فيلا ديلي آلي وأولي واتكينز، اسماهما هما نوع من تهجي اسم علي العربي.

ومها يكن من أمر فهذا الاسم شائع في مرويات التاريخ اليوناني القديم، ويعني المشرق والنبيل، وهو شكل مشتق من الأسماء اليونانية والألمانية القديمة مثل إلبرتا وإلبرت وإليس وإليا الذي يعد من الأسماء الشائعة جدا بين المسيحيين العرب.

ذلك يوضح لنا أن إضفاء سمة ما أيا كان نوعها للاحتفاء بالسفير الجديد لمجرد أن اسم ابنه علي، يعيدنا إلى جائزة الترضية التي بحث عنها عراقيون في وهم العراقي الذي أنقذ الاقتصاد الصيني وأكذوبة الوزراء العراقيين في الحكومة البريطانية، مقابل واقعهم كشعب مخطوف لم يستطع إلى حد الآن (لست ممن يفقدون الأمل) التخلص من براثن الخاطف.

سيرة السفير ريتشاردسون لا تشير إلى أي أهمية متعلقة بدينه، فاسمه يؤكد لنا أنه لم يولد مسلماً. كما أن الحكومة البريطانية وهي تختار أفندية "الوايت هول" لا يقف حائلا أمامها دين المسؤول، وإن كان بلا دين.

ما يحسب للسيد السفير الجديد الذي درس التاريخ في جامعة كامبريدج إتقانه اللغة العربية بشكل سليم، وقد تعلمها كما تشير سيرته المنشورة في دورات مكثفة داخل بريطانيا بحكم عمله السابق كمدير لشؤون الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في وزارة الخارجية البريطانية، إضافة إلى عمله في سفارة بلاده من قبل في كل من الصومال والعراق.

مهما يكن من أمر فالعراقيون ينتظرون من ريتشاردسون أكثر مما قدمه زميله السابق ستيفن هيكي من خبز تنور ودولمة عراقية، وأكثر بكثير من دينه واسم ابنه.

التونسيون يغيّرون القيادات وليس القطارات

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

مرة أخرى يصنع الشارع التونسي دراماه التي تتسارع أحداثها وتتصاعد بطريقة ملفتة و"سلسة"، خصوصا أن كل أسباب نجاحها متوفرة ثم أن عناصر هذه الدراما شهية المزاج ومفتوحة على كل احتمالات الارتجال في بلاد تشبه المسرح الكبير.

قوى شبابية مسيسة، لكنها غير متحزبة تضرب لها في الشارع موعدا متزامنا مع ذكرى إعلان الجمهورية، والغاية إسقاط الحكومة وحل البرلمان. بعد ساعات قليلة، رئيس الدولة الخبير في القانون الدستوري يستجيب لمطالبهم ويعلن بصوته الجهوري، شكسبيري الأداء، تجميد عمل البرلمان وإقالة رئيس الحكومة وتولي السلطة التنفيذية بنفسه استنادا إلى الفصل 80 من دستور 2014.

تهب الجماهير التي كانت غاضبة في النهار إلى الشوارع والساحات ليلا، مستبشرة بالقرار ومحتفلة بالحدث فينزل الرئيس بنفسه إلى الشارع ليشاركها احتفالاتها، رغم الحجر الصحي الذي فرضته جائحة كورونا التي كشرت عن أنيابها وأصبحت تحصد المئات كل يوم، والتي كانت بدورها أحد أسباب الاحتجاجات.

عند ساعات الفجر الأولى يهرع رئيس المجلس النيابي إلى مقر البرلمان للاعتصام أمامه في حركة احتجاجية فيجده محاطا بالجيش ويُمنع من دخوله ليدلي بتصريح يؤكد فيه أن ما جرى هو انقلاب على الشرعية ويدعو مناصريه للخروج إلى الشارع.

عند بزوغ شمس الصباح تعلن مصادر صحافية انقطاع الاتصال برئيس الحكومة هشام المشيشي الذي تم استدعاؤه مساء الأحد لحضور اجتماع في قصر الرئاسة بقرطاج وترجح أنه يخضع للاحتجاز من قبل قوات الجيش. وجدوه لاحقا في بيته. يبدو أن الإعلام غير خبير في البحث والاستقصاء.

أنباء تتحدث عن بداية صدامات وتراشق بالاتهامات والحجارة بين جماهير عريضة من المحتجين أنصار الرئيس قيس سعيد من جهة، وبين إسلاميين ومساندين لرئيس البرلمان راشد الغنوشي من جهة ثانية.

والأزمة التي انفرجت في نظر القسم الأكبر من التونسيين قد تهدد بأزمة أو أزمات داخلية متفرقة تتمثل في مواجهات مع الإسلاميين المعروفين بمناوراتهم وعنادهم وعدم استسلامهم السهل كما هو الحال في مصر عقب الإطاحة بحكمهم في يوليو 2013.

يبدو أن شهر يوليو هو كلمة السر في الإطاحة بتنظيم الإخوان، ليس في مصر فقط بل في تونس أيضا، حيث تحول من مجرد شهر ضمن شهور السنة إلى كابوس يؤرق التنظيم في معاقله الهشة كما يقول كاتب مصري، معقبا بتفاخر وزهو أن الحدث "تكرر على بعد 2234 كيلومترا بين المحروسة والخضراء".

هذه هي دراما الشارع التونسي إلى حد كتابة هذه السطور، والمفاجآت القادمة لن تكون ذات سوية دراماتيكية على الأرجح، ذلك أن التونسيين في أمزجتهم السياسية والجماهيرية ميالون إلى "القصص القصيرة والحاسمة"، على عكس شعوب المشرق العربي الميالة إلى "نظام الأجزاء" المشوب ببعض الإطالة والتكرار، إذ أن غالب التحولات في تاريخ تونس الحديث لم تستغرق بعض الساعات كما هو الحال عند إعلان الحبيب بورقيبة الإطاحة بالملكية لصالح الجمهورية غداة الاستقلال في 25 يوليو 1957.

وكذلك فعل الرئيس التونسي الأسبق زين العابدين بن علي حين أعلن تنحية بورقيبة في 7 نوفمبر 1987.

وظلت هذه السوية في الإنجاز ميزة توصف بها التحولات السياسية في تونس أي طول الانتظار الذي يعقبه الحسم السريع، كما هو الحال في ثورة 14 يناير 2011.

تونس ما بعد 25 يوليو، إذن، ليست تونس ما قبل هذا التاريخ الذي اكتسى بعدا رمزيا منذ أن اتخذه الزعيم الحبيب بورقيبة يوما لإعلان تونس جمهورية بعد أن كانت مملكة يحكمها البايات ذوو الأصول العثمانية.

الأحد 25 يوليو 2021 سيبقى يوما تاريخيا في ذاكرة التونسيين الذين خرجوا إلى الشارع نساء ورجالا تحت لهيب شمس حارقة، حاولوا اقتحام مقر البرلمان وطالبوا برحيل رئيسه راشد الغنوشي وجماعته وحملوه مسؤولية ما آلت إليه البلاد من عجز وفساد، دون أن ينسوا شريكه في الوصول إلى هذا المشهد المأساوي القاتم رئيس الحكومة هشام المشيشي، والذي كانت مواقع التواصل الاجتماعي تتبادل في نفس اليوم نشر صوره في أحد الفنادق الفخمة على شاطئ البحر، غير آبه بما وصلت إليه بلاده من انهيار شامل على المستويات الصحية والاجتماعية والسياسية.

الحقيقة التي لا يمكن أن تتجاهلها وسائل الإعلام المحلية والأجنبية في تونس هي أن التونسيين يتبادلون عبارات التهنئة وقد أضافوا إليها ميدالية أولمبياد طوكيو الذهبية في شارع الحبيب بورقيبة ذي الرمزية الكبيرة، ويرفع بعضهم الأنخاب في المقاهي والحانات وقد تناسوا التباعد الاجتماعي وسط الكارثة الوبائية.

التونسيون جربوا الأحزاب ثم كفروا بها، هذا ما حصل فعلا إذا رصدنا التحولات الهائلة في الشخصية التونسية طيلة السنوات العشر الأخيرة، إذ صاروا «ملولين» ولا يلدغون من جحر واحد إلا مرة واحدة

وهذا تصعيد درامي آخر يصبغ الحياة الاجتماعية في تونس، فتقفز في ذهنك مقولة لأحد الزوار الوافدين إلى البلاد "لا تستغرب شيئا.. إنك في تونس".

مرة أخرى تنسحب الأحزاب السياسية التونسية لصالح قوى شبابية ومدنية تبدو خفية وشبه غائبة عن المشهد، لكنها تحضر مرة واحدة وفي هبّة رجل واحد كما هو الأمر في انتخابات 2019 التي حملت قيس سعيد إلى قصر قرطاج الرئاسي وتوجته رئيسا بأغلبية انتخابية أمام ذهول خصوم سياسيين وأمناء أحزاب كنا نظنها وازنة، وفي غياب المال السياسي والحملة الدعائية المنسجمة مع هذا الإنجاز المفاجئ.

أغلب الاعتقاد في نظر مراقبين سياسيين أن أولئك الشباب الذين رافقوا حملة قيس سعيد في الانتخابات الرئاسية وناصروه على مواقع التواصل الاجتماعي، رغم افتقاره إلى برنامج حزبي واضح، هم الذين استجاب لهم الرئيس هذه المرة، وكأنه يكافئهم على مساندتهم له ويرد لهم الجميل.

التونسيون جربوا الأحزاب ثم كفروا بها مرة واحدة وإلى الأبد. هذا ما حصل فعلا إذا رصدنا التحولات الهائلة في الشخصية التونسية طيلة السنوات العشر الأخيرة، إذ صاروا "ملولين" كثيرا، ولا يلدغون من جحر واحد إلا مرة واحدة.

والتونسيون لم يعودوا ذلك الشعب العاطفي كما هو مسوق في نظر البعض. لقد أصبحوا يفكرون برؤوس باردة رغم عواطفهم الجياشة. وهذه المرة وثقوا بقيس سعيد لأنه لم يخدعهم كما فعل الغنوشي والمشيشي وغيرهما ممن أشبعوا الناس وعودا ولم يجنوا من كلامهم غير المزيد من البؤس والخصاصة.

هل يُخشى على الديمقراطية الناشئة بعد ما حدث؟ الجواب حتما لا، ذلك أن القطار قد أخذ سكته ولا يحتاج سوى قيادة مسؤولة، سيغيرها الشعب في وقت سريع ثم يتابع القطار سيره وقد عرف طريقه جيدا.